

دراسات حول بعض اللاهوتيين العرب:

عمّار البصريّ

من كتاب "كتاب البرهان وكتاب المسائل والأجوبة لعمّار البصريّ، (ضمن سلسلة بحوث ودراسات الحايك ميشال / المجلد الخامس / معهد الآداب الشرقية ، دار المشرق، بيروت، ١٩٨٦).
(نشرة "رعبي" للروم الارثوذكس بيروت)

١- حياته

من هو: عمّار البصري اسم مجهول المسمّى. لا نعرف عنه إلا القليل عن طريق ما سلّم له من هذين الأثرين: "كتاب البرهان على سياقة التدبير الإلهي" و "كتاب المسائل والأجوبة" في مخطوطة يتيمة محفوظة في مكتبة المتحف البريطاني تحت رقم ٨٠١ من المخطوطات العربية.



عن حياته، لم يكتب عنه احد، او نجهل ذلك في الوضع الحالي للمعلومات التي لدينا. كيف لم يلفت اليه نظر المؤرخي كنيسة سورية وما بين النهرين. وبالمقابل فان الاقباط هم الذين انقذوا هذا العمل من النسيان. فقد أدرك أبناء العسّال الأقباط قيمة عمّار البصري: فأبو إسحق بن العسّال ذكره في "مجموع أصول الدين" مُغدقاً عليه نعوت التعظيم. والأسعد بن العسّال ذكره في مقالته عن النفس التي كتبها سنة ١٢٣١. والصفّيّ أبو الفضائل بن العسّال إختصر الكتائين "مع تهذيب وزيادة لاحت في أثناء الإختصار وميل عن الرأي النسطوري وليس إلى ما يناقضه بل على ما يجوز للفرق الثلاث القول به".

ولكن ما من أحدٍ أفادنا جديداً عن شخصية عمّار البصري ولا عن ظروف مكانه وزمانه وحياته وأثاره الأخرى. واسمه يبقى مشكّلة. أتراه حقيقياً أم مستعاراً للتضليل لئلا يُعرف صاحبه؟ ولكن ما الغاية من التخفي؟ أتراها الخشية من هول السلطان، مع أنه لا يسيء لإحدٍ في كلامه أو في كتاباته.

لنقل أن عمّار هو اسمه الحقيقي. والبصري نسبة إلى البصرة، وهي مدينة شهيرة بموقعها. وهي كذلك مركز اسقفي عند النساطرة منذ أوائل القرن الثالث. وإذا صحّ أن يكون مؤلفنا هو بصريّ وأن عمّار هو اسمه العالمي، فهل وراء هذه اللقب أسم كنسي يحجب وحه أحد أخبار الكنيسة النسطورية؟ لا يمكن الأخذ بهذا الإفتراض دون أن تثبت لنا فيه حجة سوى أنّ الرجل متمرّس بعلم اللاهوت، مُحنّك بالمنطق الإغريقي، وعارف بأدق دقائق الدين.

٢- المكان والزمان:

المكان: البصرة. أمّا الزمان؟ في الكتابين إشارات نستقرئها، فنستمدّ منها حجة قاطعة لتحديد زمن عمّار. وقد إهتدى التنقيب إلى حصر زمنه في الثلث الأول من القرن التاسع، يوم كانت بغداد على وشك أن تصبح مختبراً للقاء الحضارات، وبينما كان النساطرة يُبايعون خلفاء على العلم والمعرفة.

لقد ثبت من الإشارات والحوادث الواردة في كتبه أنّ عمّار عاش في زمن المأمون والمعتمد. وأنّه مُعاصر لأسقفين شهيرين، هما: أبو قرّة الملكي (+ ٨٢٥) أسقف حرّان، وأبو رائطة اليعقوبي (+ ٨٢٩) أسقف تكريت، وكلا الأسقفين ناظرا المسلمين في الشؤون الدينية وتركنا لنا أولى الآثار المسيحية العربية في هذا المجال .

٣- مؤلفاته:

ليس لدينا قائمة كاملة لمؤلّفات عمّار البصري، ولم يسلم له من المؤلّفات سوى اثنتين. والكتابان هما من جملة الآثار المسيحية التي سلمت من التلف على يد الأقباط. فالناسخ القبطي خطّهما عام ١٢٩٨ في الجودية وهي حي من أحياء القاهرة. أمّا المخطوطات التي آلت إلينا بالعربية فهي:



(١) "كتاب البرهان على سياقة التدبير الإلهي": وهو جواب على نقائص الإسلام للمسيحية. ولكنه لا يكتفي بدفع الإلتباس وردّ الشبهة، بل هو محاولة لإجلاء الحقّ على ضوء

"سياقة التدبير الإلهي": اثبات وجود الله والدلائل على ان المسيحية هي الدين الحق، وفي التثليث والاتحاد واثبات التجسد والصلب وفي المعمودية والاخرة.

(٢) "كتاب المسائل والأجوبة": هذا الكتاب هو معجم للإعترضات التي يثيرها العقل بوجه الإيمان، وجواب من العقل نفسه، عندما يُروّضه الإيمان، حتى "تبدّد خطرات الشكّ، وتشبع القلوب يقيناً". فيتألف من اربع مقالات: في تثبيت قدم الخالق ووحدانته واثبات حدوث العالم (أي خلقه)، في تثبيت الانجيل المقدس، في تثبيت وحدانية الخالق بثلاثة اقانيم، وفي سبب تجسد الكلمة. ويقول كاتبنا في بداية الكتاب الثاني ان الغاية من كتابه هي "الاحتجاج في أمر الخالق تبارك وتعالى، والقول في تصحيح وحدانية ربوبيته جل ثناؤه وتقدست اسماؤه، وإقامة الحجّة به على اهل الجحود له، والتسليم لتدبيره". مقدمة هذا الكتاب تدل على ان عمارا كان يعرف القرآن والتفسير وعقائد المسلمين جيدا. وكان يلّم بالعربية.

٤- مكانته ودوره:

لم يكن عمّار البصري غريباً عن مشاكل كنيسته وعصره. ولقد عالج مختلف العقائد المسيحية الأساسية، التي كانت على الدوام وإلى اليوم عُرضة للعديد من أنواع الرفض والتشكيك والسخرية من قِبَل أعداء المسيحية.

ويشكّل عمّار البصري مع الأسقفين الشهيرين (أبي قرّة وأبي رائطة) "ثلاثياً" يمثّلون الفرق المسيحية الكبرى ويعرفون التراث المسيحي بلغة السريان واليونان. ولقد أطلقوا دون شكّ بالعربية قضايا الفلسفة واللاهوت الكبرى التي سيعالجها من بعد أهل الحكمة وأهل الكلام في الإسلام، على أساس عقلائي بعد أن طاعت لهم المصطلحات المنطقية المنقولة عن السريانية واليونانية.

ولقد دارت بين الأدباء والمفكرين العرب من مسيحيين ومسلمين محاورات ومجادلات كثيرة بين أخذٍ وردّ. والردّ يفترض الإطلاع الإضطلاع. وهكذا فإن تلك المحاورات والنقائض والمجادلات، مع ما فيها من حجج وأدلة، طوّعت اللغة العربية للمصطلحات الفلسفية واللاهوتية وفتحت للتراث الديني المحصور بعد القرآن والحديث نوافذ جديدة ومعضلات ومسائل ومشاكل سوف تتضارب حولها الفرق ويبنى فوقها الفكر الإسلامي كلامه وحكمته وتصوفه.

فعمّار البصري، وهو أول من كتب بالعربية مجموعة جدلية بهذه الضخامة، هو إذاً صاحب أثر بعيدٍ في تنمية الفكر الفلسفي، وتوعية الوعي الديني على متطلبات العقل. يكفي أن نقول أنّه فريد من نوعه في ذلك العصر المأموني الخصب. فلا أبو رائطة، على ما له من عمق وسلامة، ولا أبو قرّة، مع ما هو عليه من غزارة ومرونة، بلغا شأنه في الإحاطة المنطقية بالموضوع وفي ابتكار المفردات. فلقد إستنبط على سبيل المثال لا الحصر من لفظة إنسان "أنسنة"، "تأنسن"، "تأنس"، "أنوسة"، "إنسيّة". وله ابدعيات في هذا المجال: "أنيّة" (من "أنا")، "مائيّة" "ماهيّة" (من "ما") "إبنيّة" (من "إبن")، إلخ... وهو أول كاتب بالعربية جرى تحت قلمه هذا السيل من الألفاظ الثريّة. ولقد كان مضطعاً على الفلسفة والفكر اليوناني كما يظهر ذلك جلياً في طريقة كتابته ومنطقه. كذلك كان عمّار البصري النسطوري يعرف عقائد الفرق المسيحية على إختلافها (مريقيون وماني وزرادات)، فينقضها أو يشير إليها أو يحاجّها فيها .

ثم انه قرأ القرآن لما يذكر من آياته على نصها ومن تفسير المسلمين لها حيناً. وهو على كل حال يعرف كل ما أخذ الإسلام على عقائد المسيحية وممارستها، فيردّ على الإعتراض بإعتراض مماثل ويُرفقه بحجة العقل ونصوص الوحي.

أخيراً عمّار البصري فكر أنيق لا ينحطّ مرة عن مستوى الجدل الرفيع، فهو أرقى من يُمثل التخاطب المسيحي الإسلامي. وهو يُعلمنا درساً ويزيدنا يقيناً، بضرورة تعمير البيت المسيحي الإسلامي الذي يجب ان ترتفع عواميده الفكرية والدينية حتى العقد والعهد

٥ - أهمية نتاجه

في نهاية هذا البحث الذي إستطعنا من خلاله أن نُلقي نظرة سريعة على الأدب العربي المسيحي، الذي تميّز بالزخم والغنى اللاهوتي بكافة فروعه ومواضيعه. ولقد أصبح هذا اللاهوت في العصر الذهبي مرتبطاً بالقياس الفلسفي وبالغنى الكتابي وبالميزة الدفاعية. وكان هذا اللاهوت بالرغم من تنوعه طريقاً للوحدة، لأنه كان مبنيًا على أساس لغة واحدة ما زالت إلى يومنا هذا حيّة ومنتشرة .

ولقد أثر هذا النتاج الفكري واللاهوتي في تاريخ العلاقة المتبادلة بين المسيحيين والمسلمين في الشرق، وفي بث روح التآخي والتلاقي بالرغم من الاختلافات الظاهرية الكثيرة فيما بينهم. ولقد كان لعمّار البصري دور بارز في هذه المسيرة. فلقد ناضل في حياته على الجبهة الخارجية، تجاه الدين الإسلامي المنتصر الذي بدأ يضغط إجتماعياً وفكرياً على المسيحيين، حاول إظهار دعائم حقيقة الديانة المسيحية وإيضاح عقلائية معتقداتها. لسنا ندرى ما إذا تمكن من إقناع محاوريه المسلمين. إلا إنه في كل حال تمكن من أن يفرض على محاوريه إحترام المعتقد المسيحي فقوى معنويات أبناء دينه المستضعفين وثبتهم في إيمانهم.

ولا شك أن عمّار البصري مفكّر كبير، له شخصية مميزة وأهداف سامية وأفكار خاصة. ويبدو لأول وهلة أن عمّاراً يجمع في شخصه الفيلسوف واللاهوتي. فالمسائل التي يطرحها هم كل من الناحيتين. والأسلوب الذي يعتمد منه منوط بالقياس الفلسفي والتأمل اللاهوتي معاً.

إلا أن هدف عمّاراً الأول ليس البحث الفلسفي ولا التعمق في اللاهوت. إنما الحافز العميق الذي يدفع عمّاراً في كتاباته، إنما هو إحتباره لحياة الإيمان ضمن كنيسة المسيح. وهذا الإيمان وإن كان مغلقاً على من هم في الخارج، ويسمو على العقل، ففي العقل إنفتاح على الإيمان. لذلك يقدم أبي قرة الإيمان لهم في بعده العقلائي.

وقد حاول أن يظهر أن العقل البشري، بتفكير في معطيات الطبيعة، واختبار الإنسان الذاتي، يجد تناسقاً عميقاً بين متطلباته ومعطيات الإيمان. وهذا التلاقي دلالة تشفع في صحة الديانة المسيحية، التي هي في الوقت نفسه الديانة التي أوحاها الله وأرادها للبشرية، والتي تحقّق فوق كل توقع، أعمق رغبات الإنسان. والآن، بعد مضي إثني عشر قرناً من الزمان، لا يزال لكلام عمّار البصري واقع عميق في قلوبنا وعقولنا.

عليهم ، اذ هو اعظم المصائب النازلة بهم في هذا العالم . ويكبت الشيطان عدوهم ، اذ كان سبباً لخطيئة آدم الذي دخل بسببها الموت ، بان يطله عنهم ويقبضهم من عثرتهم ويصيرهم الى نعمته ويبشرهم بما اعد لهم من ملكوته في العالم الدائم الذي لا ينتضي ولا يفنى ، ولا تدركهم فيه آفة ولا ينالهم فيه نصب ولا مكروه ، ولا يلحقهم فيه موت ولا فناء ولا فساد ولا غيار . بان يحصل ما اعد لجميعهم من ذلك في واحد منهم ، اذ كان وقت قيامة جميعهم لم يحسن ، وكان بعض الشيء يُقضى على كله وكان ذلك اصح عندهم في قيامة جوهرهم من الاقتصار فيه على الكلام ، اذ كان الفعل اكثر من القول .

- فظهر لذلك . معاً تقدم وصفنا له . في بشر منهم واحتجب به وكلّم العالم منه وأمنّ عليهم وشرّفهم باحتجابه به وتوحيده اياه في السلطان والكرامة معه ، فأماته ليحييه قبلهم ويرفعه الى السماء متقدماً امامهم .
- وجعل موته مشهوراً منصوباً باتجاه اعينهم ، كما اذا اراد انسان ان يعلن امرأ ويشهره ليتمكن الناس من النظر اليه ، رفعه فوقهم ونصبه امامهم لكي اذا نظر الناس الى الذي احتجب به انخالق منهم قد مات ، وضع عندهم موته وأنه من جوهرهم الذي جرى عليه الموت بتركيب // بدنه وما ظهر من ألمه المعروف به جوهرهم ، ثم قام من القبر حياً وارتفع الى السماء ليصير فيها مخلدًا ، علموا وايقنوا ان جميع جوهرهم يقوم من القبور ويخرج عن سلطان الموت مثله ، اذ كان مساوياً لهم في جوهرهم ، ويصير من تشبه به في البرّ والطهارة الى السماء كما صار . فيعظم سرور المصابين بالموت المفرّق بين ابدانهم وارواحهم ، المغموس بكربه وملازمته اياهم ومروره في جميعهم ، بما يصح لهم ا بسلامة واحد منهم من انقضاء الموت عنهم ، ويصير عندهم شبيهاً بالرقدة بين الدنيا والآخرة ، وينبسط رجاؤهم ويعملون في طلب ما اعد لهم من ملكوته ، ويهون الموت عليهم ، اذ وضع انقضاؤه عنهم ، ويعظم سرورهم بما قد ذكر من الحياة لهم .
- فهذه ايها الانسان الميت نعمة الله ومنته عليك بصلب المسيح الذي استشعنت وقلت ما يجب عليك من شكرها الى الكفر بها والظعن فيها .

تعليق على كتابات عمار البصري

(من نشرة "رعيتي" للروم الارثوذكس، بيروت)

لا تخلو مقالات عمار من جدالات مع المسلمين، فيرد على الذين يهزأون من تقبيل الصليب قائلاً: "ولم تقبلون حجراً كان المشركون يكرمونه ويقبلونه؟". وهو يرد على

اعتراضاتهم حول العقائد المسيحية، فيرى ان الابوة والبنوة اللتين أنعم بهما الله على الانسان هما كرم فريد من الله اكرم به الانسان وحده، اذ بهما شابه الانسان بحياته الذاتية. ويقول في مكان اخر: "لو كانت الابوة والبنوة عارا لكانت حواء التي لم تولد اعظم من جميع الاشياء، ولكان الشيطان الذي لم يلد اعظم من ابراهيم خليل الرحمن". وفي مكان اخر ينكر "الحمية الولادة" او ان يكون الله "اتخذ صاحبة وولدا بحسب قول القرآن".

وهو يرد على القائلين بتحريف الانجيل بالقول ان كون الكتاب منتشرا في ممالك مختلفة وعلى السنة متباينة وفي شيع مسيحية متفرقة يجعل من المحال اتفاق المسيحيين على تحريفه. كما يدحض مقولة التحريف بالتساؤل اذا كان المسيحيون قد حرفوا انجيلهم فلماذا ابقوا على الآيات التي تلزمهم بأمر ليست سهلة كالصلاة والصوم وترك اللذات والشهوات؟ ويتابع كاتبنا قائلا: "ويثبتوا فيه ما يعقلونه لذيذا عندهم في الآخرة من الزواج والشرب وغير ذلك". كما يتساءل الكاتب في معرض دحض التحريف: "تعظيم المسيح ارادوا؟ فلم لم يمحو ما في الانجيل من تصغير له كذكر الصليب والموت والدفن وغير ذلك؟ او تصغيره ارادوا؟ فلم لم يسقطوا ما فيه من تعظيم له مثل قوله انه ديان الدين ورب العالمين؟

اما عن التجسد فيعتبر عمار ان ظهور الكلمة في الناس "اشبه بفضله (أي فضل الله) وجوده وأبين لاكرامه اياهم وتشريفه لهم من ظهوره في بيت حجارة وتابوت خشب وشجرة حقيرة وسحاب". لذلك اخذ الكلمة جسدا خاطب منه الناس مباشرة لأن جوهر الانسان خير مقام للتجلي الالهي، والتجلي منه هو تشريف للجوهر الانساني كله. ويستغرب عمار موقف رافضي التجسد متسائلا: "لماذا يريد خالقك لك ايها الانسان الشرف والعلو وانت تريد لنفسك السفالة والدناءة؟ (...). لعلك تريد ان تساويه بنفسك في البخل". كرم الله وجوده يقابله جحود الانسان وبخله.

ولكن تجدر الاشارة الى ان عمار البصري كان رصينا في الجدل، يرتفع به الى مستوى معارف العصر والفلسفة واحترام الاخرين من دون اتهامات شخصية. فهو يمدح الخليفة بتعابير انيقة: "ادام الله لأمير المؤمنين بهذا العز وجماله، واكمل له سناء الشرف وجلاله، واسبغ عليه توالي النعم...". "اعز الله امير المؤمنين وايده". وقد ساهم عمار البصري، بلا شك، في تطويع اللغة العربية للمصطلحات الفلسفية واللاهوتية، ذلك ان المحاورات والمجادلات والردود المتبادلة كانت تفترض العلم الغزير ومعرفة كثيفة باللغات العلمية السائدة آنذاك وضرورة نقلها الى عربية مبينة.